الأبعاد الاستراتيجية لاختيار مدينة الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية (دراسة في الجغرافية السياسية)

The strategic dimensions of choosing the city of Kufa capital of the Arab Islamic state (geopolitical study)

أ. م. د. قاسم عبد علي عذيب
المديرية العامة لتربية ميسان

Assist. Prof. Dr. Qasim Abd Ali Atheeb
General Directorate of Maysan Education

ملخص البحث

توسَّعت الدولة العربية الإسلامية من دولة المدينة إلى رحاب الجزيرة العربية، ثم ما لبثت أن تمددت وتوسَّعت في زمن الحكَّام الثلاثة الذين أتوا بعد الرسول (ﷺ) في العراق وبلاد الشام، حتى انفتحت بجناحين نحو الشرق والغرب، حيث بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر شرقاً، كذلك توسَّعت غرباً في مصر وأجزاء من شمال إفريقيا وأرض النوبة[1]، ناهيك عن التوسع في بعض جزر البحر المتوسط.

وعندما تولى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) الخلافة سنة ٣٥هـ عمل على نقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، وكان وراء هذا التغيير أبعادٌ استراتيجية شكلت ضاغطاً سياسياً وعسكرياً ودينياً لتغير موقع العاصمة، ومن هذه الأبعاد ما يرتبط بموقع الدولة وشكلها ومساحتها التي توسَّعت بشكل كبير، فضلًا عن وجود عوامل داخلية تتمثَّل بالتمرد والعصيان الذي قاده معاوية بن أبي سفيان ضد الخلافة الإسلامية، ناهيك عن الموقع الاستراتيجي للكوفة من هذه التحديات.

Abstract

The Arab Islamic State expanded from the city to the Arabian Peninsula and then expanded and expanded the time of the Caliphs in Iraq and the Levant, Until it opened two wings to the east and west, where Persia and the country beyond the river to the east, It also expanded westward in Egypt and parts of North Africa and Nubia (1), not far from some Mediterranean islands. When Imam al-Imam bin Abi Talib (pbuh) assumed the Caliphate in 35 AH, he worked on transferring the capital of the Arab Islamic State from Madinah to Kufa. The change was a strategic dimension that formed a political, military and religious pressure to change the capital's headquarters. And these dimensions are linked to the location and shape of the state and its area, which expanded significantly, in addition to the presence of factors It is a crime, rebellion and disobedience led by Muawiya bin Abi Sufyan against the Islamic Caliphate, Not to mention the strategic location of Kufa of these challenges.

المقدمة

يرتبط بموقع الدولة ومساحتها وشكلها موضوعاً هاماً في الجغرافية السياسية وهو العاصمة، فالعاصمة هي المدينة التي تستقر فيها حكومة الدولة وسلطاتها ومؤسساتها، وللعاصمة وظيفتها السياسية أي الحكم والإدارة وتعمل على توحيد الدولة، ولابدَّ أن تكون العاصمة مركزاً للقوة والسلطة حتى تتمكن من بسط سلطانها على كلِّ أجزاء الدولة وتحميها من أيِّ تهديدٍ داخلي أو خارجي.

لهذا عمل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) عندما أصبح خليفةً للمسلمين على نقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، وذلك لمواجهة التحديات التي تعرضت لها الدولة العربية الإسلامية، على وفق رؤية استراتيجية، ذات أبعاد مختلفة؛ ليتمكن الإمام علي (عليه السلام) من التعامل مع هذه التحديات واستثمار الإمكانات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي تتمتع بها مدينة الكوفة، ناهيك عن موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط المدينة المنورة والبصرة والشام، وخاصة الأخيرة التي باتت تهدد كيان الأمة الإسلامية، أضف إلى ذلك موقعها الوسيط بوصفها عاصمةً للعالم الإسلامي المترامي الأطراف.

ولهذا تناول المبحث الأول مراحل توسُّع الدولة العربية الإسلامية في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن جاء بعده من الحكَّام في الحقبة الأولى؛ ليتضح موقع الدولة العربية الاسلامية وشكلها ومساحتها والموقع الاستراتيجي للعاصمة، وأمَّا المبحث الثاني الذي فقد ركَّز على أشكال الدول وأنواع العواصم ومواقعها، ليتمكن من إيضاح

العلاقة بين موقع العاصمة وشكل الدولة ومساحتها. وركز المبحث الثالث على نشأة الكوفة وخصائصها الجغرافية والسيناريوهات التي تفسر انتقال العاصمة من المدينة المنورة إلى الكوفة. وخلصت الدراسة إلى عدد من الاستنتاجات.

انطلقت الدراسة من مشكلة تمثلت بالسؤالين الآتيين: (ما العلاقة بين شكل الدولة ومساحتها من جهة وموقع العاصمة من جهة أخرى؟ وهل هناك أبعاد استراتيجية مؤثرة لنقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة؟). وقد جاءت الفرضية بوجود علاقة قوية بين شكل الدول ومساحتها وموقع العاصمة منها، كذلك تؤكد الدراسة بوجود أبعاد استراتيجية فعالة وقوية ضغطت باتجاه نقل العاصمة إلى الكوفة، للوقوف بوجه التحديات الجديدة التي أملتها ظروف التوسع المكاني للدولة العربية الإسلامية وبروز التمرد في بعض المناطق. وتشمل الدراسة مكانياً حدود الدولة العربية الإسلامية عندما تسلم الإمام علي (عليه السلام) الخلافة وقد حُدِّدت في المبحث الأول من هذه الدراسة، أما الحدود الزمانية للدراسة فتمثلت بالمدة من (٣٥- ٤٠هـ) (٦٥٦- ٦٦١م) وهي مدة حكم الإمام علي (عليه السلام).

وتهدف الدراسة إلى إيضاح التغيرات الجيوبوليتيكية في شكل الدولة العربية الإسلامية ومساحتها إبَّان الفتوحات الإسلامية وما يترتب عليها من تغيير موقع العاصمة، وكذلك تهدف إلى بيان الأهمية الاستراتيجية للموقع الجغرافي لمدينة الكوفة والأبعاد التي تقف وراء هذا التغير في موقع العاصمة.

المبحث الأول

مراحل التوسع الجغرافي للدولة العربية

الإسلامية

عندما ظهر الإسلام في مكة المكرمة جوبه بردٍّ عنيف من لدن قريش، فاضطر الرسول الكريم محمد (ﷺ) ومن معه من المسلمين للهجرة إلى المدينة المنورة، التي سرعان ما انتشر الإسلام فيها وأصبحت حصناً للمسلمين ومنطلقاً لنشر رسالتهم السماوية، ولذا انتشر الإسلام في كل أرجاء الجزيرة العربية واليمن التي خضعت لدولة المسلمين في زمن النبي محمد (ﷺ). وبعد وفاة الرسول الكريم (ﷺ) سلك من جاء بعده من الحكّام في الحقبة الأولى طريق فتح الدُّول، ففتح العراق وبلاد الشام وبلاد فارس وأرمينيا وأذربيجان شرقاً، ومصر وأجزاء من شمال إفريقيا والنوبة غرباً، وعدد من جزر البحر المتوسط شمالاً. ومن هنا سيتناول هذا المبحث مراحل التوسع الجغرافي للدولة العربية الإسلامية على النحو الآتي:

أولاً: مراحل التوسع في العصر النبوي (٦١٠م- ٦٣٢م- ١١هـ):

اهتم الإسلام كثيراً ببناء الدولة الإسلامية وتوسعها، إلى جانب التأكيد على عالميته، وكان تأسيس الدولة الإسلامية ضرورة ملحة لحماية حركة الرسالة والدعوة إليها، وذلك لضمان انطلاقها إلى العالم الإنساني من مجتمع شبه الجزيرة العربية، الذي كان يضم قوة سياسية وعسكرية لقريش التي تصدت بكل ثقلها لإحباط أي خطة للتوسع، بينما كان يضم المجتمع العربي في المدينة المنورة قوة سياسية وعسكرية واقتصادية يهودية، وكانت الدولة الفارسية والبيزنطية ذات القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية تحيط بشبه الجزيرة العربية من جهة ثالثة. ومن هنا كان على النبي محمد

(ﷺ) أن يعد بالتدريج لمكافحة كل الموانع والعقبات التي ستحول بينه وبين مهمته العالمية، فبدأ بمحاربة الوثنية في داخل الجزيرة العربية، ومن ثمَّ المؤامرات اليهودية، فشكل قوة كبرى قادرة على الوقوف أمام السلطان الفارسي والبيزنطي خارج حدود الجزيرة العربية[٢].

وفي المدينة المنورة أسس النبي محمد (ﷺ) أول نواة الدولة العربية الإسلامية عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، كذلك كتب دستور المدينة الذي ينظم شؤون الحياة فيها[٣].

كانت خطوات الرسول الكريم محمد (ﷺ) تدريجية ومتجانسة ومتلائمة مع تحول الجماعة الإسلامية إلى مجتمع متكامل، وفي أدناه الخطوات التي خطاها الرسول الكريم محمد (ﷺ) لإنشاء دولته العالمية في العهد المدني[٤]:

١. مرحلة تثبيت قواعد الدولة: وهي مجموعة إنجازاته في السنة الأولى من هجرته المباركة.

٢. مرحلة البناء: وقد استمرت خمس سنوات تقريباً، وتضمنت مواجهة أنواع التحديات إلى جانب النشاط المستمر للبناء ضمن دورين متميزين، وهما دور الدفاع، ودور الإسلام المشروط.

٣. مرحلة الانتشار والتوسع: وكان صلح الحديبية مؤشراً سياسياً واجتماعياً لاكتمال عملية البناء، وإيذاناً بانفتاح الطريق أمام مرحلة التوسع والانتشار.

لقد أسهمت مجموعة من المعارك التي قادها النبي محمد (ﷺ) في توسيع مساحة الدولة العربية الإسلامية وأهم هذه المعارك هي:

١. معركة بدر ٢هـ/ ٦٢٤م:

أسهمت معركة بدر في توسيع مكانة الدولة العربية الإسلامية،

وقد ألحقت هزيمة بقريش، وحققت هدفاً كبيراً، فقد لفتت انتباه العرب إلى قوة الدولة الإسلامية، وبالوقت نفسه اهتزت هيبة قريش لدى العرب وارتفعت مكانة المسلمين.

٢. غزوة الخندق ٥هـ/ ٦٢٦م:

ولغزوة الخندق دور مهم في توسيع مكانة الدولة العربية الإسلامية، وثبات المسلمين، وتفكك الأحزاب وخذلانهم وزرع الشكوك بينهم.

٣. صلح الحديبية:

فتح هذا الصلح آفاقاً واسعة أمام دولة المسلمين للثبات والتوسع، فقد أصبح هذا الاتفاق نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة جديدة، لأنَّ هذا الاتفاق هو الذي كرس وثبت الدولة الإسلامية وأرسى قواعدها وجعلها شامخة أمام كل القوى المحيطة بها[٥].

٤. مراسلات الرسول:

بعد انصراف الرسول محمد (ﷺ) من الحديبية، أرسل ستة من أصحابه إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى هرقل ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك القبط، فكان ردهم إيجابياً إلا كسرى، وبالفعل نجح الرسول محمد (ﷺ) في التمهيد لنشر الدعوة الإسلامية وتوسيع مساحتها خارج نطاق الجزيرة العربية، كذلك نجح في كسب العديد من القبائل مثل أصحاب أيلة وأهل جرباء وأذرح.

٥. غزوة مؤتة ٨هـ/ ٦٢٩م:

بعد اتفاقية الحديبية وجه الرسول محمد (ﷺ) اهتمامه إلى الشمال لضرب تجارة مكة ولتوسيع مساحة الدولة العربية الإسلامية، ولضم القبائل هناك، إذ تمكن عمر بن العاص سنة ٨ هـ من القضاء على قبائل بلى وقضاعة المتحالفة مع البيزنطيين[٦].

٦. فتح مكة ٨ هـ/ ٦٢٩ م:

سقطت مكة بأيدي المسلمين

بعدما سار النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ومعه عشرة آلاف مقاتل بعد أن نقضت قريش (صلح الحديبية)، وأمضى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) خمسة عشر يوماً في مكة لتحقيق الأمان، وتحققت المرحلة الأولى من توحيد الأمة العربية الإسلامية، وخرجت من نطاق دولة المدينة إلى نطاق الدولة الكبيرة.

٧. حصار الطائف (معركة حنين) ٨ هـ/ ٦٢٩ م:

توجه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) نحو الطائف لفتحها، فخرج باثني عشر ألفاً من المسلمين، فحاصر الطائف بضعاً وعشرين يوماً وانتصر على المشركين، فكانت هزيمة التحالف الوثني في حنين آخر ضربة حاسمة للوجود الوثني في الجزيرة العربية، ممَّا دعا القبائل العربية أن تتسابق في إرسال وفودها إلى قاعدة الإسلام (المدينة المنورة) لمبايعة الإسلام أو المصالحة[٧].

٨. غزوة تبوك ٩ هـ/ ٦٣٠ م:

بعد حصار الطائف ومعركة حنين، توجه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلى تبوك في بلاد الشام لغزوها، ومن وراء هذه الغزوة برز المسلمون بوصفهم قوَّةً كبيرةً منظمةً تهابها الدول المجاورة، كذلك ضمن المسلمون عن طريق المعاهدات مع زعماء المناطق الحدودية من جهة الشمال أمن هذه المناطق، إضافة إلى قدرة المسلمين من تعبئة جيشاً كبيراً في العدة والعدد، وزادت خبرتهم في التنظيم والإدارة[٨].ينظر خريطة (١).

ثانياً: التوسع الجغرافي في عصر أبي بكر وعمر وعثمان:

١. التوسع الجغرافي في زمن أبي بكر (١١- ١٣ هـ) (٦٣٢- ٦٣٤م):

واجهت خلافة أبي بكر تحديين كبيرين، تمثل الأول بحركات الردة وخروج بعض القبائل عن

سلطة الدولة الإسلامية في الجزيرة، ومحاولة الحاكم من إعادة الأمور إلى نصابها، أما التحدي الآخر فتمثل بالفتوحات الإسلامية التي تمت على جبهة العراق وجبهة بلاد الشام ما يمكن أن نوضحه على النحو الآتي:

أ. حروب الردة (١١- ١٢ هـ) (٦٣٢- ٦٣٣ م):

كان للقبائل العربية ردود فعل متباينة بعد وفاة النبي محمد (ﷺ)، فالبعض رأى ان استئثار قريش بالسلطة غير صحيح، ورأى فريق آخر انه غير ملزم بطاعة أصحاب النظام الجديد، وهنالك الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم وحاولوا العودة إلى جاهليتهم، علاوة على ذلك دور المتنبئين (الذين ادعوا النبوة)، كذلك هناك قبائل ترى نفسها نداً لقريش أمثال بني تميم، وادَّعوا بأنهم يطبقون الإسلام ماعدا الزكاة لأنهم يوزعونها بين قبائلهم، ولذا وجد أبو بكر نفسه أمام موقف بالغ التعقيد، ولابد من إعادة سلطة الدولة الإسلامية على أرجاء الجزيرة العربية كافة، فبدأ بحملة واسعة لإعادة بسط نفوذ الدولة العربية الإسلامية على أراضي الجزيرة العربية كافة، وبأقل من سنة استطاع أبو بكر من القضاء على الفتنة وإعادة القبائل إلى سلطة الدولة وبسط نفوذها السياسي والديني[٩].

ب. معركة جيش أسامة:

تنفيذاً لأمر الرسول محمد (ﷺ) توجه جيش من المسلمين إلى الشام، بقيادة أسامة بن زيد على رأس سبعمائة مقاتل، فلما نزل أسامة في منطقة وادي ذي خشب توفي الرسول محمد (ﷺ)، وتوقف الجيش عن المسير إلى الشام، وارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام، وظهر النفاق، وطلب بعض الناس من ارجاع جيش أسامة ليساهم في إخماد

الفتنة، إلا أنَّ أبا بكر رفض ذلك، لأن إرسال هذا الجيش يعني إظهار قوة المسلمين المادية والمعنوية من جهة، ويؤسس للفتوحات الإسلامية من جهة ثانية.

ج. معركة اليمامة:

سارت جيوش المسلمين إلى بني حنيفة في اليمامة، وقد تنبأ فيهم مسيلمة الكذاب، وكانت سجاح بنت الحارث قد قصدت بجنودها اليمامة لتنتزعها من مسيلمة الكذاب، إلا أن مسيلمة الكذاب عرض نصف أرض اليمامة عليها، كذلك عرض عليها الزواج فوافقت وكان عدد جنودهم نحو (٤٠) ألف مقاتل، ونشب قتال شديد بين المسلمين وبينهم ذهب فيه الكثير من الطرفين، وانتصر المسلمون أخيراً وقتل مسيلمة وسجاح وتم القضاء على الردة[١٠]، وإعادة هذه القبائل ومناطقهم إلى سلطة الدولة في المدينة المنورة.

د. فتوح الجبهة الشرقية (الفرس) ١٢هـ/ ٦٣٣ م:

بعد الانتهاء من حروب الردة، أراد أبو بكر التوجه للعراق الذي كان خاضعاً للإمبراطورية الفارسية، وأرسل خالد بن الوليد الذي تمكن من تحرير الحيرة وبسط سلطة دولة المسلمين عليها سنة ١٢ هـ، واتخذها مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسياً يتلقى منه جيوش المسلمين أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم، كذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة[١١].

ه. فتوح الجبهة الغربية (الروم) ١٢هـ/ ٦٣٣ م:

سار خالد بن الوليد بمن معه من المسلمين إلى وقعة الفراض، وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة العربية، ولما بلغ الروم ذلك جمعوا الجيوش الكبيرة وكان ذلك منتصف

ذي القعدة (١٢ هـ) فاقتتلوا قتالاً عظيماً، ثم هزم الله جموع الروم[١٢]، وكانت هذه المعركة بوابة لتوسع دولة الإسلام في بلاد الشام لاحقاً.

٢. التوسع الجغرافي في زمن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ) (٦٣٤ - ٦٤٣ م):

تحقق في عهد عمر بن الخطاب أكبر تمدد جغرافي للدولة العربية الإسلامية على مرِّ العصور، فقد تم طرد الروم وإنهاء وجودهم في بلاد الشام، وتم القضاء على الإمبراطورية الفارسية تماماً، ثم تم فتح مصر وشمال إفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط، وقد تحقق هذا التوسع الجغرافي بالتتابع على النحو الآتي:

أ. فتح العراق وبلاد فارس:

تم فتح العراق وتحريره من الاحتلال الفارسي، وتوسيع مساحة الدولة العربية الإسلامية، وانطلق التحرير بمعركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس، واستمر المسلمين بمطاردة الفرس فتم تحرير المدائن، كذلك زحف الجيش العربي نحو جلولاء، وكان النصر حليف المسلمين بعد معركة جلولاء على الرغم من الخندق الذي حفره الفرس حول المدينة، بعدها تحقق فتح عربي عسكري آخر حين هزم الهرمزان في معركة رامهرمز، متبوعاً بفتح مدينة تستر ومدينة جندي سابور، وفي العام (٢١ هـ) حدثت معركة نهاوند (فتح الفتوح) بعد أن توقف الجيش العربي على مداخل جبال زاكروس لأخذ قسط من الراحة وإعادة التنظيم، بعدها توالت الحصون الفارسية بالسقوط، فكانت معارك همذان والرمي وجرجان وأذربيجان والباب والترك وخراسان واصطخر وكرمان وسجستان ومكران والأكراد، وكلها

فتحت في عام واحد[١٣]، وبهذا تم تحرير العراق وبلاد فارس وتوسيع الدولة العربية الإسلامية.

ب. فتح بلاد الشام:

بعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك، طلب عمر بن الخطاب متابعة الفتوحات وتوسيع مساحة الدولة الإسلامية في الشام، وعمل على تكليف أبي عبيدة بن الجراح بدل خالد بن الوليد في قيادة جيوش المسلمين، وتقدم أبو عبيدة لفتح دمشق وبيت المقدس، وبعد فتح دمشق تقدم نحو مدينة فحل فحررها، ثم توجه إلى حمص فصالح أهلها، ومن بعدها قصد بعلبك وحماه وشيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين، وواصل أبو عبيدة زحفه إلى معرة النعمان وافتتحها صلحاً، وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سوريا إلى عبادة بن الصامت ففتحها عنوة، ثم فتح انطروس وجبلة عنوة، أما أبو عبيدة فقد سار إلى قنسرين فحررها، وتقدم نحو حلب فحررها، ومن هناك زحف نحو أنطاكية وصالحوه على الجزية والجلاء، ومن ثم تقدم المسلمون نحو فلسطين وحاصروا أجنادين وهزموهم[١٤]، وبهذا الإنجاز الكبير توسعت مساحة الدولة العربية الإسلامية لتشمل كل بلاد الشام.

ج. فتح مصر وشمال إفريقيا:

تعد مصر امتداد طبيعي لبلاد الشام، وقد كانتا خاضعتين للدولة البيزنطية، ولأن المسلمين حرروا بلاد الشام، فلابد من تحرير مصر لتأمين الأراضي المحررة من سطوة البيزنطيين، وقد سار عمر بن العاص قاصداً مصر لفتحها وعرض على أهلها الإسلام أو الجزية أو القتال كما هو معهود عند المسلمين[١٥].

وفي سنة ١٨ هـ/ ٦٤٠ م سار

عمر بن العاص في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط، فوصل العريش ففتحها من دون مقاومة، ثم سار نحو الفرما فحررها وكذلك بلبيس، وانصرف عمر بن العاص لمحاصرة الإسكندرية سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٢م وبعد أربعة أشهر سقطت بيده، ثم توجه نحو بلاد المغرب في الشمال الأفريقي فاكتسح برقة وكانت تعرف بمدينة انطابلس وتبعها في فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣م[١٦].

٣. التوسع الجغرافي في زمن عثمان بن عفان (٢٣- ٣٥ هـ) (٦٤٤- ٦٥٦ م):

تابع عثمان بن عفان مراحل توسع الدولة العربية الإسلامية من جهتي المشرق والمغرب، كذلك حاول إخماد حركات التمرد التي حصلت في شمال وغرب بلاد فارس سنبينها على النحو الآتي:

أ. التوسع في إفريقيا ٣٧ هـ/ ٦٤٧ م:

سمح عثمان بن عفان للجيوش بالتحرك نحو إفريقيا، فسار عبد الله بن أبي سرح فاجتاز طرابلس والتقى جيوش بيزنطة وحقق الانتصار عليهم، وضمَّ للدولة الإسلامية كل من برقة وطرابلس وغرب مصر وجزء من بلاد النوبة.

ب. فتح فرغانة (السند) ومدن أخرى (٢٩ هـ/ ٦٤٩م):

ولَّى عثمان بن عفان عبد الله بن عامر بن كريز العراق، وكتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند ويفتحها، فكلف بدوره حكيم بن حيلة العبدي ففتحها، ووصل القائد عمر بن عثمان إلى فرغانة ففتحها، ووصل عبد الله الليثي إلى كابل، وعبد الله التميمي إلى نهر السند، وفتح سعد بن العاص جرجان، وقد انتفضت فارس فأخضعها عبد الله بن عامر، فهرب قائد الفرس يزدجرد إلى كرمان ثم خراسان

حيث قتل هناك وأعيد فتح المناطق التي نقضت عهدها ومنها خراسان سنة ٣١ هـ[١٧].

ج. بناء الأسطول والمعارك الحربية وفتح الجزر:

تمكن معاوية من بناء أسطول بحري، واتفق مع عامل مصر عبد الله بن أبي سرح على غزوة جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٨ م، واقتحم الجيش العربي عاصمة قبرص، وفي عام ٣٢ هـ/ ٦٥٢م اتجه الأسطول العربي إلى صقلية، ونزل أرض الجزيرة وانتصر على بعض مدنها، وقضي على مركز الإغارة البيزنطية القريبة من السواحل العربية، وفي عام ٣٤ هـ/ ٦٥٤م بعث معاوية حملة لفتح رودس وجزيرة اقريطش بقيادة جنادة بن أمية الأزدي[١٨].

وبنهاية حكومة عثمان بن عفان أصبحت الدولة العربية الإسلامية تمتد على أرض الجزيرة العربية واليمن والعراق وبلاد فارس وبلاد السند وما وراء النهر (أفغانستان والباكستان)، وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا (جزء من ليبيا) وأرض النوبية (شمال السودان)، إضافة إلى عدد من الجزر في البحر المتوسط وأذربيجان وأرمينيا. ينظر خريطة (٢).

المبحث الثاني
أشكال الدول والموقع الاستراتيجي للعاصمة

أولاً: أشكال الدول:

يعد الشكل أحد المكونات المورفولوجية للدولة التي تؤثر على تأديتها لوظائفها وعلى سلوكها السياسي، ولاحظنا في المبحث الأول أن الدولة العربية الإسلامية قد اتخذت شكلاً جديداً بسبب توسعها وتمددها بشكل كبير، ويعد شكل الدولة وموقع العاصمة إضافة إلى العوامل الأخرى أحد

الاعتبارات الهامة التي تؤثر في الجغرافية السياسية للدولة، ويرتبط الشكل كثيراً بالنواحي العسكرية والإدارية الداخلية، وتصنف الدول إلى أنماط متباينة من حيث الشكل وقد تم تصنيفها على ستة أنماط لابد من التطرق إليها لمعرفة شكل الدولة العربية الإسلامية أيّاً من هذه الأنماط الستة.

١. الشكل المنظم:

كلما كانت الدولة مندمجة كلما كان ذلك أفضل من الناحية السياسية لها، ويعد الشكل الدائري أو القريب منه هو الشكل المثالي للدولة، ويعد شكل الدولة مثالياً لو كانت كل أطرافها على أبعاد متساوية تقريباً من وسطها الهندسي، على شرط أن تكون العاصمة في وسط الدولة، ويترتب على الشكل الدائري للدولة أن يكون طول حدودها قصيراً بالنسبة لمساحتها، فالشكل الدائري يؤدي إلى تقليل المسافة بين المركز والاطراف، ويترتب على هذه الحسنة سهولة الإدارة الداخلية للدولة، ولذلك يقل عدد المواقع التي يحتمل أن تغزى منها الدولة، وأن الشكل الدائري إذا كان كبير المسافة يوفر لجيوش الدولة العمق المكاني الذي يمكن أن تتقهقر فيه إذا استدعت الظروف لذلك، ويعمل هذا الشكل على تسهيل إنشاء شبكة نقل ومواصلات جيدة للدولة، وفي وقت السلم تسهل حركة النقل والتجارة باعتبار عنصري الوقت والتكلفة في الدولة ذات الشكل المثالي، وكذلك أن الشكل المثالي يساعد على انصهار سكان الدولة في بوتقة واحدة وزيادة الشعور القومي وتقوية المصالح المشتركة، ومن أمثلة الدول المندمجة هي (اورغواي، وبولندا، والمجر)[١٩].

٢. الدول ذات الشكل المستطيل:

يوجد نوعان من الدول المستطيلة الشكل، إحداهما دولة تمتد على طول الساحل مثل فيتنام وشيلي والأرجنتين والنرويج، وهذا النوع من الدول وخاصة النرويج وشيلي تعاني من عدم وجود خطوط سكك حديدية تغطي الدولة من أقصاها إلى أقصاها، فإذا كانت بعض الدول المستطيلة لديها بعض الطرق البرية التي تربط أجزائها فان بعضها الآخر يفتقر إلى هذه الميزة، وهذا ناجم من كون طولها (٦) أمثال عرضها، فتشيلي مثلاً يبلغ طولها (٤١٦٠) كم بينما لا يزيد عرضها عن (١٦٠) كم، ومعظم هذه الدول تعتمد على الملاحة البحرية في الاتصال بين أجزاء الدولة، أما النوع الثاني من الدول المستطيلة فهي الدول الداخلية مثل لاوس والنمسا ومالاوي، وهذه الدول تتميز بوجود الحواجز التي تمتد على طولها مما يترتب عليه عرقلة وسائل النقل[٢٠].

ويؤدي الشكل المستطيل إلى التباين الحضاري وإلى ظهور الانقسامات بسبب التباين في التضاريس وقد يشجع التباين الحضاري على الاختلاف السياسي[٢١].

٣. شكل الدولة ذو البروز:

ويرتبط بشكل الدولة بعض الظواهر الأرضية السياسية مثل النتوء الجبلي السياسي والقطاع السياسي ورأس الجسر.

أما النتوء الجبلي السياسي فهو امتداد السيطرة الإقليمية لدولة ما عبر حدود جبلية. أما البروز فهو عبارة عن شريط ضيق من الأراضي يمتد من الدولة ليفصل بين أراضي دولتين متجاورتين، أو يفصل بين أراضي دولة وبين البحر، ويعني رأس الجسر امتداد السيطرة الإقليمية لدولة ما عبر نهر ما[٢٢].

٤. شكل الدولة المجزأ:

هي الدولة المكونة من جزأين جغرافيين أو أكثر، وهو شكل له عيوب كثيرة تواجه التماسك الداخلي للدولة وتعيق إجراءات الدفاع عنها، ويوجد نوعان من هذا التصنيف: الأول دول على شكل أرخبيل جزر مثل الفلبين واليابان وأندونيسيا، والثاني يضم جزءاً قارياً مثل باكستان وسلطنة عمان، والآخر يمثل جزءاً قارياً وجزءاً بحرياً مثل ماليزيا واليونان[٢٣].

وتعد تجزئة الدولة ضعفاً استراتيجياً، إذ يصعب التحكم في وقت السلم في كل الأجزاء، كما يصعب الدفاع عنها في وقت الحرب، ويقل ارتباط الناس ببعضهم في الدول المجزأة وبالتالي يضعف تماسكهم الأمر الذي يؤدي إلى إضعاف روح الوحدة اللازمة لنشأة الدولة وبقائها وقد تكون التجزئة برية أو بحرية أو برية بحرية[٢٤].

٥. الشكل المنحرف (الجيب السياسي):

وهو جزء من مساحة الدولة محاط كلياً بأراضي دولة أخرى، مثل برلين الغربية داخل ألمانيا الشرقية قبل توحيد ألمانيا[٢٥].

٦. الشكل غير المنتظم:

بعض الدول تتصف بشكل غير منتظم، بحيث يصبح من الصعب تعيين مركزها الهندسي، كما هو الحال في أشكال بعض الدول الأفريقية التي تفتقر إلى التماسك. ولا شك أن وجود هذا النمط يؤدي إلى عرقلة الحركة والاتصال، ويقلل أو يعوق التفاعل بين أقاليم الدولة، إضافة إلى انه ينطوي على تهديد للدفاع والأمن الداخلي. فالشكل الذي تتصف به جمهورية مالي مثلاً ضيق من الوسط أدى إلى ضعف الاتصال والتفاعل بين إقليمها الشمالي والجنوبي، ومن المعلوم أن الشكل غير المنتظم من

شأنه أن يترك العاصمة بعيدة عن أقصى الشمال والجنوب، مما يضعف الوحدة الوطنية، ويخلق مواقف دفاعية صعبة[٢٦].

وبعد دراسة توسع الدولة العربية الإسلامية في المبحث الأول ومعرفة امتدادها في الجزيرة العربية واليمن والعراق وبلاد فارس وأفغانستان والباكستان وأرمينيا وأذربيجان وبلاد الشام ومصر وأجزاء من شمال إفريقيا والنوبة نجدها أقرب إلى الشكل المنتظم (الشكل المندمج)، وهذا ما يستدعي نقل العاصمة إلى الوسط الهندسي للإفادة من المميزات الجيوبولتيكية لهذا الشكل.

ثانياً: الموقع الاستراتيجي للعاصمة:

لابدَّ للدولة من مدينة تدعى العاصمة تدير منها المناطق التي تخضع لسلطتها وسيادتها، ولذلك يمكن تعريف العاصمة على أنَّها المكان الذي ترتكز فيه السلطة السياسية لإدارة الدولة، وتختلف الطريقة التي ظهرت فيها العواصم إلى الوجود، فبعضها ظهر على شكل مراكز تجارية، أما بعضها الآخر قد ظهر على شكل حصون عسكرية، وبعد نمو هذه المدن توسعت سيطرتها السياسية على مناطق أوسع، وهناك نوع آخر من العواصم تصمم من البداية ويتم اختيار موضعها لغرض القيام بهذه المهمة السياسية-الإدارية بالدرجة الأولى، ومهما يكن أصل العاصمة وطريقة نشوؤها، فإن وظيفتها الأساسية هي أنَّها مقر الحكومة والمؤسسات الحكومية، كما تقوم بعض العواصم بتقديم الوظيفية الدينية أيضاً، ومنذ القدم كانت العواصم أهم مراكز التطور الحضاري والاجتماعي في الدولة، وقد تصبح العواصم مراكز رئيسية للشعور القومي، وفي العاصمة يكمن تنظيم الدولة ورخائها وقوتها

السياسية وماضيها وتعد أحد مصادر فخرها القومي[٢٧]، وفي هذا المبحث سيتم دراسة أسباب اختيار العواصم للوقوف على أسباب اختيار الكوفة بوصفها عاصمةً للدولة العربية الإسلامية في زمن خلافة الإمام علي (عليه السلام).

أسباب اختيار العواصم:

١. العامل التقليدي:

بعض العواصم تقليدية مثل القاهرة وبغداد ودمشق، فالقاهرة عاصمة مصر منذ الفتح العربي لها، وكسبت نفوذاً سياسياً واقتصادياً كبيراً على مرِّ الزمن، وجذبت كثيراً من الوظائف الإدارية إليها، وحازت شهرة محلية وإقليمية ودولية. كذلك الحال بالنسبة لدمشق وبغداد.

٢. عامل التقليد التاريخي:

لا شكَّ في قوة الناحية القومية بوصفها عاملًا في اختيار العاصمة، فالهند بعد أن حصلت على استقلالها جعلت عاصمتها دلهي بدلاً من كلكتا، لأنَّ الأولى كانت المركز السياسي الرئيسي في البلاد في القرن السابع عشر، وكذلك رغبة في طي صفحة الاستعمار في شبه القارة الهندية وبدأ صفحة جديدة بعاصمة جديدة.

٣. سيادة قومية معينة:

إذا كانت الدولة متعددة القوميات وإحداها قوية الشوكة فإنها تجعل العاصمة في منطقتها بغض النظر عن القوميات الأخرى، مثل موسكو في منطقة القومية السلافية أقوى قوميات الاتحاد السوفيتي السابق، وكذلك بلغراد العاصمة القومية ليوغوسلافيا السابقة التي كانت عاصمة دولة الصرب في مدة قصيرة لما للصرب من دور في توحيد البلاد[٢٨].

٤. سهولة الاتصال:

اختار الاستعمار عواصم أفريقية

موانئ ساحلية؛ ليسهل إدارة التجارة العالمية للمستعمرات فيها، فهذه العواصم كانت في موقع متوسط بين الظهير القاري للمستعمرات وبين الدول الاستعمارية وراء البحر، ولما استقلت الدول الأفريقية، وجدت نفسها ترث عواصم مركزية بالنسبة للتجارة الخارجية، لكنها هامشية جغرافياً وحضارياً وإدارياً للدولة، خاصة كبيرة المساحة منها والمتأخرة في شبكات النقل والمواصلات، وشجع هذا الأمر على اختيار عواصم أكثر مركزية ويتمثل فيها الشعور القومي أصدق تمثيل؛ لأنَّ عواصمها الحالية ذات طابع إقليمي وليس قومي.

٥. مواقع متقدمة (عواصم متقدمة):

كإسلام أباد عاصمة باكستان بدلاً من كراتشي، لأن الأولى تقع على مقربة من كشمير المتنازع عليها مع الهند، وحتى البرازيل اختارت برازيليا عاصمة لها بوصفها موقعًا متقدمًا لتعمير اللامعمور في داخل الدولة.

٦. عامل التوفيق السياسي:

اختيرت بون عاصمة لألمانيا الغربية لأنها كانت مكان ميلاد المستشار الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية والموسيقار بيتهوفن حتى تم توحيد ألمانيا في عام ١٩٩٠م، وانتقلت العاصمة منها إلى برلين ثانية عام ٢٠٠٠م، وبالمثل عواصم الدول الاتحادية تخضع لعامل التوفيق السياسي.

٧. الموقع الجغرافي الوسيط:

يشترط للعاصمة أن تكون في موقع جغرافي بارز، وينبغي أن تتوسط الدولة وأن تكون منها في المركز الهندسي، وإذا ما بقيت الظروف الأخرى على ما هي عليه فإن الموقع الجغرافي المتوسط للعاصمة يسهل أمور الحكم والإدارة

لتقصير المسافات لحدها الأدنى، والموقع المتوسط للعاصمة يتيح لها الحماية من السقوط في حالة الحرب، لأن ضياع العاصمة يحطم معنويات الدولة، وقد يكون اختيار العاصمة في الوسط الهندسي للدولة بقصد الرغبة الواعية في إيجاد التوازن بين مصالح أجزائها المختلفة، ويلاحظ أن العاصمة مركز إداري لأمرين هما الأرض والسكان[٢٩].

وعند النظر إلى أنواع العواصم نجدها تصنف إلى عواصم دائمية (تاريخية)، وهي عواصم أدت دورها بوصفها مركزاً اقتصادياً أو ثقافياً رياديا في الدولة على مدى عدة قرون[٣٠]، والعواصم المجزأة أو المقسمة وهي عواصم لتسوية الخلافات بين المدن المتنافسة أو بين الجماعات الحضارية المختلفة[٣١]، والعواصم المتقدمة وهي مدن اختيرت؛ لتكون عاصمة وهي مدن صغيرة أو جديدة بلا حدود تاريخية[٣٢]، ويبدو أن الكوفة ينطبق عليها العاصمة المتقدمة لمواجهة التحدي القادم من بلاد الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، لتكون العاصمة قريبة من منطقة الصراع والتآمر على الخلافة الإسلامية واحتلال العراق. وكذلك الموقع الجغرافي الوسيط للكوفة بين المدن الإسلامية المهمة (المدينة المنورة والبصرة والشام) من جهة، وتتوسط العالم الإسلامي الجديد من جهة أخرى، وهذا ما سنتطرق له بالتفصيل في المبحث الثالث.

المبحث الثالث

الأبعاد الاستراتيجية لنقل العاصمة من المدينة المنورة إلى الكوفة

تنقل العواصم لأسباب مختلفة قد تكون سياسية أو اقتصادية أو جغرافية أو استراتيجية، فنقل عاصمة روسيا القيصرية من موسكو

إلى بطرسبورغ؛ لرغبة الإمبراطورية في زيادة اتصالها بالغرب لتستقبل تأثيرات المدن الغربية، كذلك عملت تركيا على نقل عاصمتها من اسطنبول الساحلية إلى أنقرة الداخلية، والأمر نفسه عملت شيلي على نقل عاصمتها من فالباريزو على الساحل إلى سانتياغو داخلياً، فعامل الاستقرار الداخلي شكل هدفاً سياسياً للدولة في نموها.

وقد يكون نقل العاصمة لأسباب استراتيجية، كنقل عاصمة باكستان من كراتشي على الساحل إلى مدينة إسلام أباد في أقصى الشمال بالقرب من مناطق النزاع الهندي الباكستاني حول إقليم كشمير[٣٣].

وفي هذا المبحث سيتناول الباحث نشأة الكوفة وخصائصها الجغرافية، ثم الانتقال إلى السيناريوهات التي تفسر اختيار الكوفة بوصفها عاصمةً للدولة العربية الإسلامية.

أولاً: نشأت الكوفة وخصائصها الجغرافية:

١. نشأت الكوفة:

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها، فلم يسكنها العرب ولا غيرهم، وإنما كان موضعها جزءاً من الضفة الغربية للفرات الأوسط إلى الشرق من مدينة الحيرة، وفي هذا السهل الخصب المحصور بين الفرات شرقاً والبادية الواسعة غرباً كان موضعها ثغراً من ثغور البادية، ومحلاً لتبادل البضائع بين الفرس والعرب، ونقطة اتصال بين الجماعات العربية المنتشرة في البادية وأهل القرى الآراميين الذين سكنوا هذه المنطقة[٣٤].

وعند انطلاق عمليات تحرير الأرض العربية، تمكن سعد بن أبي وقاص من الانتصار في معركة القادسية، وفتح المدائن وأقصى الفرس عنها واتخذها قاعدة لحركاته،

فأقام فيها معسكراً للمقاتلين، وبعد معركة جلولاء وانتصار العرب فيها وتأمين المناطق الشرقية من دجلة وزوال الخطر الفارسي. أدرك سعد بن أبي وقاص أنَّ المدائن لا تصلح قاعدة دائمة لإقامة المقاتلين العرب بسبب مناخها غير الملائم لهم (وخومة البلاد)، وقد كتب إلى عمر بن الخطاب «أنَّ العرب قد أترفت بطونها وخفَّت أعضادها وتغيرت ألوانها» فكتب له عمر بن الخطاب «إنَّ العرب لا تصلح بأرض لا يصلح بها الإبل»، وتظهر هذه النصوص أنَّ مناخ المدائن غير ملائم لعرب الجزيرة.

كذلك هناك عوامل اجتماعية وحضارية دفعت باختيار موقع آخر غير المدائن للمقاتلين، إذ إن استيطان العرب في المدن القديمة يستلزم اختلاطهم بالسكان القدماء والتأثر بعاداتهم وأخلاقهم، مما يضعف سماتهم التي تميزوا بها.

ثم إنَّ وجودهم في مدن أغلب سكانها من الأعاجم المغلوبين، قد يعرضهم إلى أخطار الدسائس والمكائد والعداء والثورات، وإقامة العرب في مراكز خاصة بهم ييسر إنشاء نظم في إدارتهم وتنظيماتهم منسجمة مع أوضاعهم وتوجهاتهم[٣٥].

ولذا نزل سعد بن أبي وقاص بعد انتقاله من المدائن في عدة أماكن قبل أن يستقر في الكوفة، فاختطها وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجد الكوفة سنة ١٧هـ[٣٦].

شعر العرب المسلمون بالحاجة إلى دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة تكون بمثابة المعسكر والمركز للهجرة في الوقت نفسه، وأصبحت الكوفة محطة للمجاهدين ومستقر للقبائل وحلقة الوصل بين عاصمة المسلمين (المدينة المنورة) والمناطق المحررة[٣٧].

٢. الخصائص الجغرافية لمدينة

الكوفة:

لقد فعلت الظروف الجغرافية فعلها بخصوص انتقال الجيش العربي من المدائن إلى الكوفة، فكانت الكوفة تقع في المكان الذي يدلع البر لسانه في الريف المروي، في موضع متقدم من البر على سطح فوق شاطئ الفيضان لنهر الفرات على ارتفاع (٢٢م) فوق مستوى سطح البحر، ويرتفع الموقع فوق النجف غرباً الذي كان بمثابة الحوض المالح، وكذلك فوق البطائح (الاهوار) جنوباً التي كانت تمتد حتى البصرة[٣٨].

أضف إلى ذلك فان موقع الكوفة يتمتع بميزات جغرافية وعسكرية كما اشترطها عمر بن الخطاب، بأن يكون للمقاتلين موقعاً متصلاً بالجزيرة العربية وعاصمتها (المدينة المنورة) اتصالاً مباشراً ولا يفصله عنها ماء (نهر)[٣٩].

وللعوامل النفسية دورٌ واضحٌ في اختيار الكوفة بوصفها معسكرًا للمقاتلين، ذلك أن العرب لا يتكيفون مع مكان إلا إذا تكيفت معه مواشيهم «إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل»، فكان موقع الكوفة بين الصحراء والريف المزروع، بمعنى انه يرتبط بأرض السواد (العراق) دون أن ينفصل عن الجزيرة العربية[٤٠].

أضف إلى موقع الكوفة وهوائها النقي ومواردها المائية الطيبة، هو الموقع الاستثنائي للسكن البشري، كونه يتمتع ببيئات جغرافية مختلفة، فالصحراء والنهر والبطائح والبحيرة المالحة (بحر النجف)، هذه البيئات الجغرافية المختلفة تخلق نوعاً من التكامل الوظيفي وتكون قاعدة جديدة ذات طابع عسكري، خاصة وان المقاتلين المسلمين في هذه القاعدة العسكرية كان أغلبهم من المدربين

عسكرياً، فلم يكونوا قد تعودوا على حياة الترف والاهتمام الكبير بجمع الأموال واقتناء الثروات[٤١].

ثانياً: المسارات التي تفسر اختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية.

وضع البحث ثلاثة مسارات تفسر اختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية إبان تسلم الإمام علي (عليه السلام) زمام الأمور واختياره حاكمًا للمسلمين وهذه المسارات هي:

المسار الأول: الموقع الجغرافي المتوسط للكوفة:

كما أشرنا سابقاً أن مساحة الدولة العربية الإسلامية قد توسعت بشكل كبير في العصر النبوي والعصر الذي تلاه، حتى شملت الجزيرة العربية واليمن والعراق وبلاد فارس وبلاد الشام ومصر وجزء من ليبيا وبلاد النوبة وجزء من تركيا الحالية، وأذربيجان وأرمينيا وأفغانستان والباكستان الحالية، وعدد من الجزر في البحر المتوسط.

وعلى وفق هذه الشكل الجديد للدولة العربية الإسلامية والمساحة الشاسعة المترامية الأطراف، بات من غير المنطقي البقاء على (المدينة المنورة) بوصفها عاصمةً للمسلمين، وذلك للمسافة الكبيرة التي تفصل العاصمة عن الدول والمدن التي تم فتحها وتحريرها من الدولتين الساسانية والبيزنطية، خاصة وان هذه الدول (الامصار) التي تم فتحها حديثة العهد بالإسلام، وسكانها بحاجة ماسة للرعاية والعناية الدينية والسياسية والعسكرية، ولازالت الأخطار تعصف بها وتهددها بالانفصال عن الحكومة الإسلامية، كذلك تضطلع العاصمة بالدور الديني والسياسي والعسكري والاقتصادي لأن الرسول الكريم

(ﷺ) ومن جاء بعده من الحكَّام في المدة الأولى يملكون كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وعلى وفق شكل الدولة الجديد، لابد للعاصمة أن تكون في موقع جغرافي بارز، وينبغي أن تتوسط الدولة الجديدة، وأن تكون منها في المركز الهندسي، لأن الموقع الجغرافي المتوسط للعاصمة يسهل أمور الحكم والإدارة لتقصير المسافات لحدها الأدنى، والموقع المتوسط للعاصمة يتيح لها الحماية من السقوط في حالة الحرب، لأن ضياع العاصمة يحطم معنويات الدولة ويعني انهاء الحرب بالاستسلام للعدو، وقد يكون اختيار العاصمة في الوسط الهندسي للدولة بقصد الرغبة الواعية في إيجاد التوازن بين مصالح أجزائها المختلفة، ويلاحظ أن العاصمة مركز إداري لأمرين هما: الأرض والسكان[٤٢].

وتحتل الكوفة موقع القلب من المنطقة التي كانت تدور فيها المعارك بين العرب والإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية[٤٣]، كما ان موقع الكوفة يمثل نقطة اتصال كما نقطة التقاء بين عالمين هما (الجزيرة العربية من جهة والعراق من جهة أخرى)، وهو ينفتح على طريق الامدادات العربية القادمة من الجزيرة العربية، كما يمثل أيسر خط يربط العراق بالجزيرة العربية[٤٤].

وجاء اختيار الإمام علي (عليه السلام) مدينة الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية؛ لأنها تتوسط بين المدينة المنورة والبصرة وبلاد الشام. كذلك تتمتع الكوفة بموقع جغرافي واستراتيجي مهم، يتمثل بتربعها على كتفين هما: الصحراء التي تعطيها بعداً سوقياً، ويمثل خطاً مفتوحاً يؤمن رجعتهم في حالة تعرضهم للخطر فيحتمون بها

عندما يضايقهم العدو من جانب، والماء والأرض الخصبة التي تمثل مركزاً تموينياً للجيوش التي تحارب في الجبهات العسكرية في العراق والمناطق الشرقية من جانب آخر، مما ساعد على جذب السكان إليها[٤٥].

فضلًا عن قرب الكوفة من مدينة الحيرة (عاصمة المناذرة) تلك المدينة المتربعة على ساحل بحر النجف، واتصالها بريف العراق وسواده وبأرض شبه الجزيرة العربية مما أعطاها بعداً تاريخياً آخر[٤٦].

ويعتقد الباحث أنَّ التوسعات المستقبلية للدولة العربية الإسلامية كانت حاضرة في فكر الإمام علي (عليه السلام)، عندما اتخذ الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية، والدليل على ذلك ان الدولة العربية الإسلامية عندما توسعت إلى حدود الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ووصلت إلى حدود فرنسا شمالاً، لم تبتعد العاصمة كثيراً عن هذا الموقع الجغرافي الوسيط فنجد دمشق عاصمة الدولة الأموية، وبغداد عاصمة الدولة العباسية، قريبة من الكوفة وتكاد تكون هذه العواصم الثلاث في موقع جغرافي وسيط من مساحة الدولة العربية الإسلامية ولم يفكر أحد من حكَّام بني أميَّة وبني العبَّاس باتخاذ مكة أو المدينة المنورة عاصمة من جديد. ينظر خريطة (٣).

المسار الثاني: وجود الجيش القوي الموالي لعلي (عليه السلام):

كان العامل العسكري في مقدمة العوامل التي ساهمت في نشأة الكوفة، ولذا أطلق عليها لفظ (كوفة الجند)، وقد اختيرت لتكون نقطة ارتكاز يستريح عندها الجند من عناء السفر وعناء القتال، ثم أصبحت معسكراً ثابتاً، فأشارت المصادر إلى أن الكوفة (دار هجرة ومنزل جهاد) و(دار

هجرة وقيروان)[٤٧]، وأطلق لفظ المقاتلة على المرابطين على حدود الكوفة والزاحفين نحو العراق من شبه الجزيرة العربية[٤٨].

وأول من سكن الكوفة هم أهل اليمن وكان عددهم اثنى عشر ألفاً، ونزار ثمانية آلاف، غير أن سكان الكوفة سرعان ما زاد من عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً يضاف لهم تسعة عشر ألفاً من الولادات[٤٩]، وكانوا من خيرة المقاتلين المدربين على القتال، والذين ساهموا في تحرير العراق من السيطرة الساسانية، وانتصروا في معارك القادسية والمدائن وجلولاء، وعندما تولى الإمام علي (عليه السلام) الخلافة سنة (٣٥هـ/ ٦٥٥م) كان أهل الكوفة أول المبايعين، وكان طابع التشيع لأهل البيت (عليهم السلام) غالباً في الكوفة، وعندما كانت المدينة المنورة هي العاصمة، كان أهلها منعزلين وغير متفاعلين إزاء الأحداث الساخنة التي عصفت بالدولة العربية الإسلامية، كفتنة الناكثين التي قادها طلحة والزبير وخروجهم ضد الإمام علي (عليه السلام)، وفي خضم هذه الظروف التمس الإمام علي (عليه السلام) من أهل المدينة النصرة والمؤازرة سياسياً وعسكرياً، إلا أن محاولته هذه لم تلقَ استجابة، حيث رفض أغلب أهل المدينة ذلك وانعزلوا عن كِلا الفريقين، وفي هذا الجو من الشبهات توجه الإمام علي (عليه السلام) نحو الكوفة بعد استشارة أصحابه، لأن أهل الكوفة شيعة لعلي (عليه السلام) والذي قال فيهم «**إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ أَشَدُّ إِلَيَّ حبا، وفيهم رؤوس الْعَرَبِ وَأَعْلامُهُمْ**»، فأرسل أتباعه إليها ليطلب العون والنصرة، فلبى عدد غفير من أهل الكوفة دعوته وانضموا إلى جيشه[٥٠]. كذلك قال الإمام علي (عليه السلام) بأهل الكوفة «**يا أهل الكوفة أنتم وليتم شوكة**

العجم وملوكهم، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فأغنيتم حوزتكم اعنتم الناس على عدوهم»[٥١]، ومن هذه النصوص نستنتج أن الجيش الكوفي كان جيشاً عقائدياً قوياً مدرباً شجاعاً موالياً لعلي (عليه السلام).

وبعد مخاطبات لم تجد نفعاً في إخماد الفتنة التي قادها طلحة والزبير، التقى الجمعان ودارت معركة حامية الوطيس عرفت بمعركة الجمل سنة (٣٦هـ/ ٦٥٧م)، اعتمد فيها الإمام علي (عليه السلام) على مقاتلي أهل الكوفة والبالغ عددهم تسعة آلاف مقاتل، وكان معظمهم من المقاتلة العرب ليس فيهم أعاجم أو موالي[٥٢].

وبعد الانتهاء من معركة الجمل، نقل الإمام علي (عليه السلام) العاصمة من المدينة المنورة إلى الكوفة على الرغم معارضة بعض الأتباع لهذه السياسة، وكان من وراء هذه الخطوة فضلًا عن وجود الجيش القوي الموالي، هو اختيار الموقع القريب من الشام لمنازلة خصمه معاوية بن أبي سفيان، فأراد الإمام علي (عليه السلام) قطع الطريق أمام معاوية والحيلولة دون تقدمه نحو العراق، وإضافةً إلى ذلك أراد أمير المؤمنين (عليه السلام) أن تكون الكوفة قاعدة للأمة من جانب، وأن تكون الأمصار الإسلامية بما فيها الشام تابعة للكوفة[٥٣].

ولم يكد ينتهي الإمام علي (عليه السلام) من معركة صفين وحربه مع معاوية، حتى ظهرت فتنة جديدة متمثلة بالخوارج، فقاتلهم بمعركة النهروان وقتل أكثرهم، ثم ظهرت منهم طوائف أخر في الأنبار والمدائن فقاتلهم أيضاً وتفرق شملهم[٥٤]، وكان لجيش الكوفة الدور الكبير في القضاء على هذه الفتن التي عصفت بخلافة علي (عليه السلام)، إضافة إلى موقع الكوفة الاستراتيجي من هذه الفتن.

المسار الثالث: الأهمية التاريخية والدينية والاقتصادية للكوفة:

قد يعود اختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية هو وجود التنافس بين مكة والمدينة المنورة من جانب، وبينهما وبين البصرة من جانب آخر، حتى قيل (لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة)، وقيل أيضاً (لا يرضى أهل الكوفة بما يرضى أهل هؤلاء وهؤلاء)، ولا ننسى وجود التنافس بين الكوفة والبصرة الذي أخذ بالتوسع بعد الانتصار في معركة الجمل عام ٣٦هـ، ممَّا عزَّز من مفاخرة الكوفيين على البصريين، لأن الكوفة وقفت إلى جانب الإمام علي (عليه السلام) ونصرته، في حين البصرة وقفت إلى جانب خصومه[٥٥].

كذلك أعطى البعد التاريخي لهذه المنطقة أهمية امتدت إلى الكوفة، فأصبحت الوريث التاريخي لمدينة الحيرة؛ إذ كانت الحيرة والكوفة نشأتا في بيئةٍ عربية خالصة بعيدة عن المؤثرات الأجنبية، فاستوطن العرب المسلمون مدينة الكوفة عند تأسيسها، واتجه إليها سكان الحيرة بعد ذلك، فالجذر السكاني للكوفة يعود إلى قبائل عربية حجازية أو قبائل عربية حيرية، ولم يكن أهالي الحيرة بعيدين عن البادية، فهم على اتصال دائم بشبه الجزيرة العربية، ومحطة للقوافل التجارية، وقد ساعدت هذه الخصائص التي تميزت بها مدينة الحيرة في رفد مدينة الكوفة بما تمتلك من تراث فكري وحضاري[٥٦].

كذلك انتقلت إلى الكوفة قبائل كاملة مع الجيوش الإسلامية الفاتحة، وهذه القبائل أغلبها كانت يمانية ومضرية، وكان إلزاماً على الخلافة في الحجاز أن تلحق بهم من ينظم أمورهم الدينية والإدارية، ولذا

أمر عمر بن الخطاب مجموعة من الصحابة بالهجرة إلى الكوفة كسعد بن أبي وقاص، والصحابي عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وكذلك ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أصحاب بدر وغيرهم الكثير، هؤلاء الصحابة وغيرهم القادمون من المدينة المنورة مع الجند الذي فتح القادسية، وبناء الكوفة، كانوا يعرفون مكانة الإمام علي (عليه السلام) في الخلافة والأمرة ويعترفون بفضله وسابقته في الإسلام وعلمه ومناقبه وشجاعته، ولهذا كان جلهم يميلون إليه ويتشيعون له، ولما دخلوا الكوفة بثوا ما يعرفونه عن الإمام علي (عليه السلام) بين صفوف الجند، من قبائل مضر واليمن وربيعة وثقيف وهوازن، وكان هذا الأمر عاملاً أساسياً في تحبيب الناس إليه، وبهذا كانت الكوفة تميل إلى الإمام علي (عليه السلام) قبل أن يدخلها خليفة ويتخذها عاصمة للخلافة الإسلامية[٥٧]، بسبب العامل التاريخي الذي هي القاعدة السكانية الكبيرة.

وقد يبدو أنَّ للأهمية الدينية دوراً مساهماً في اختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية، فكان عمر بن الخطاب يسمي أهل الكوفة بـ (رأس أهل الإسلام) وقال فيهم «الكوفة رمح الله، وكنز الإيمان، وجمجمة العرب، يجزون ثغورهم ويمدون الأمصار»[٥٨].

ويعد مسجد الكوفة من المساجد الأربعة في الإسلام التي لها قدسية ومكانة وروحية كبيرة في نفوس المسلمين.

أما العامل الاقتصادي الذي تمتعت به مدينة الكوفة عند تأسيسها فانه يرتبط بالعامل الجغرافي، الذي أعطى موقع الكوفة القريب من نهر الفرات مورداً زراعياً مهماً، أذ أنه يروي أرض الكوفة التي تحيط

بها من الشرق والجنوب، لاسيما ماء هذه المنطقة قد امتاز بعذوبته ونقاوته وقد شجعت هذه الخصائص على السكن في أرض الكوفة[٥٩]، كذلك تتمتع الكوفة بأهمية تجارية مع الجزيرة العربية.

وبعد هذا العرض للمسارات الثلاثة التي تحدد أسباب اختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية، بدلاً عن المدينة المنورة إبَّان خلافة الإمام علي (عليه السلام)، ومن وجهة نظر البحث، يبدو أنَّ المسار الأول المتمثل بالموقع الجغرافي الاستراتيجي للكوفة يأتي في مقدمة الأسباب التي أدَّت إلى اختيار الكوفة عاصمةً للدولة العربية الإسلامية، ناهيك عن السبب الثاني المتمثل بوجود الانصار والمؤيدين المتمثلين بالمقاتلين الأشداء الذين تصدَّوا للقتال في معارك الجمل وصفين والخوارج. أمَّا المسار الثالث المتمثل بالأهمية التاريخية والدينية والاقتصادية فهو عامل مساعد ومعزز لاختيار الكوفة عاصمة للدولة العربية الإسلامية.

الاستنتاجات

١. تتمتع العواصم قديماً وحديثاً بأهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للدول، لذا يحرص القادة دائماً على اختيار المواقع المثالية لها لتحقيق مصالح الدولة العليا، واستثمار الموقع الجغرافي للعاصمة أفضل استثمار.

٢. تغيير مواقع العواصم بالنسبة للدول ظاهرة جغرافية سياسية مألوفة تتبع التغيرات الجيوبوليتيكية للدولة.

٣. يرتبط تغيير موقع العاصمة بمدى توسع الدولة وتمددها وتغير مساحتها وشكلها وموقعها، ويمثل الموقع المتوسط للعاصمة هو الموقع المثالي للدول ذات الشكل المنتظم

(المندمج) القريب من الشكل الدائري.

٤. قرار تغيير موقع عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة لم يأت بشكل اعتباطي؛ بل جاء على وفق دراسة ودراية للأحداث السياسية والعسكرية الجارية على الساحة الإسلامية إضافة إلى الأحداث الاستراتيجية بشكل عام.

الهوامش

(١) النوبة: هي شمال السودان.

(٢) تاريخ الإسلام، وحدة تأليف الكتب، ط٢، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية، قم، إيران، ١٩٧٥، ص ١٧٢.

(٣) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، منشورات جامعة دمشق، سوريا، ٢٠١٣، ص٤٣.

(٤) تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ص ١٧٧.

(٥) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، مصدر سابق، ص ٤٩- ٥٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٤- ٥٨.

(٧) تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ص ٢٢٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٩) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، مصدر سابق، ص ٨٧- ٨٩.

(١٠) محمد صالح جواد السامرائي، فتوحات العصر الراشدي، وقفات وفوائد، مجلة الجامعة العراقية، العدد ٢٥/ ٢، بلا سنة، ص ٥١٤.

(١١) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، مصدر سابق، ص ٩٤.

(١٢) محمد صالح جواد السامرائي، مصدر سابق، ص ٥١٦.

(١٣) متعب الزين، الدولة في عهد عمر بن الخطاب، ط ١، دار الحامد، الأردن، ٢٠١٧، ص١٦٠- ١٦٦.

(١٤) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، مصدر سابق، ص ٩٨- ١٠٠.

(١٥) محمد صالح جواد السامرائي، مصدر سابق، ص ٥٢٠.

(١٦) متعب الزين، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(١٧) محمد صالح جواد السامرائي، مصدر سابق، ص ٥٢٢.

(١٨) شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، مصدر سابق، ص ١٠٧- ١٠٨.

(١٩) محمد أكرم الأحمر، الجغرافية السياسية، جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٩- ٢٠١٠، ص ٥٨.

(٢٠) صبري فارس الهيتي، دراسات في الجغرافية السياسية والجيوبوليتيكي، ط١، مؤسسة الوراق، عمان- الأردن، ٢٠١٣، ص ٦٥.

(٢١) محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافية السياسية منظور معاصر، ط ٦، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ٢٠٠٨، ص ٢٧٢.

(٢٢) حسام الدين جاد الرب، الجغرافية السياسية، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٥٦.

(٢٣) خليل حسين، الجغرافية السياسية، ط ١،

دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٩٢.
(٢٤) محمد محمود إبراهيم الديب، مصدر سابق، ص ٢٧٤.
(٢٥) محمد احمد عقلة المومني، استراتيجيات سياسة القوة- مقومات الدولة في الجغرافية السياسية، دار الكتاب الثقافي، اربد- الأردن، ٢٠٠٨، ص ١٤٥.
(٢٦) عبد الرزاق عباس حسين، الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبوليتيكية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦، ص ٣٣٢.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٨٤.
(٢٨) محمد محمود إبراهيم الديب، مصدر سابق، ص ٢٨٣.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.
(٣٠) خليل حسين، مصدر سابق، ص ٢٢٥.
(٣١) عبد الرزاق عباس حسين، مصدر سابق، ص ٩٠.
(٣٢) محمد أحمد عقلة المومني، مصدر سابق، ص ٧٩.
(٣٣) محمد إبراهيم حسن، الجغرافية السياسية ونمو المدن، المعارف، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٦، ص ١١٥.
(٣٤) محمد حسن الحيدري، الكوفة عبر العصور، دار العربي، دمشق، سوريا، ٢٠١٦، ص ٢٠.
(٣٥) صالح أحمد العلي، الكوفة وأهلها في صدر الإسلام- دراسة في أحوالها العمرانية وسكانها وتنظيماتهم، ط١، شركة المطبوعات، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٤٩.
(٣٦) صالح أحمد العلي، المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٣٧) حسن عيسى الحكيم، الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي، ط ١، المعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٢٥.
(٣٨) هشام جعيط، نشأة المدينة العربية الإسلامية (الكوفة)، ط ٤، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ٢٠١٥، ص ٧٠.
(٣٩) أحمد صالح العلي، مصدر سابق، ص ٥١.
(٤٠) هشام جعيط، المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٤١) أحمد صالح العلي، مصدر سابق، ص ٥٣.
(٤٢) محمد محمود إبراهيم الديب، مصدر سابق، ص ٣٨٤.
(٤٣) هشام جعيط، مصدر سابق، ص ٦.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٠.
(٤٥) حسن عيسى الحكيم، مصدر سابق، ص ٢٥.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٨.
(٤٧) معنى القيروان معظم الكتيبة.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٧.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٥٠) عادل إسماعيل خليل ومحمد عبود الشرع، العوامل السياسية المؤثرة في البنية الفكرية لأهل الكوفة، مجلة حولية المنتدى، العدد ١٤، سنة ٢٠١٨، ص ١٦٧.

(٥١) محمد حسن الحيدري، مصدر سابق، ص ٥٤.

(٥٢) عادل إسماعيل خليل ومحمد عبود الشرع، مصدر سابق، ص ١٦٨.

(٥٣) حسن عيسى الحكيم، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٥٤) محمد حسن الحيدري، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٥٥) حسن عيسى الحكيم، مصدر سابق، ص ٤٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٥٧) عادل إسماعيل خليل ومحمد عبود الشرع، مصدر سابق، ص ١٥٦- ١٥٧.

(٥٨) محمد حسن الحيدري، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٥٩) حسن عيسى الحكيم، مصدر سابق، ص ٥٣.

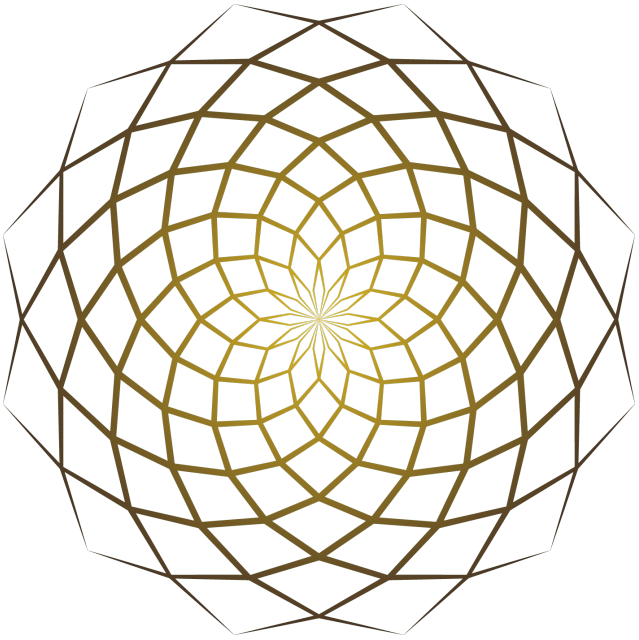

قائمة المصادر

١. تاريخ الإسلام، وحدة تأليف الكتب، ط ٢، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية، قم، إيران، ١٩٧٥.

٢. شكران خربوطلي وعبد الكريم العلي، تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، منشورات جامعة دمشق، سوريا، ٢٠١٣.

٣. محمد صالح جواد السامرائي، فتوحات العصر الراشدي- وقفات وفوائد، مجلة الجامعة العراقية، العدد ٢٥، المجلد ٢، د. ط.

٤. متعب الزين، الدولة في عهد عمر بن الخطاب، ط ١، دار الحامد، الأردن، ٢٠١٧.

٥. محمد أكرم الأحمر، الجغرافية السياسية، جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٩- ٢٠١٠.

٦. صبري فارس الهيتي، دراسات في الجغرافية السياسية والجيوبوليتيكي، ط١، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، ٢٠١٣.

٧. محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافية السياسية منظور معاصر، ط ٦، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ٢٠٠٨.

٨. حسان الدين جاد الرب، الجغرافية السياسية، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٨.

٩. خليل حسين، الجغرافية السياسية، ط١، دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٩.

١٠. محمد احمد عقلة المومني، استراتيجيات سياسة القوة- مقومات الدولة في الجغرافية السياسية، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، ٢٠٠٨.

١١. عبد الرزاق عباس حسين، الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبوليتيكية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦.

١٢. محمد إبراهيم حسن، الجغرافية السياسية ونمو المدن، المعارف، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٦.

١٣. محمد حسن الحيدري، الكوفة عبر العصور، دار العرب، دمشق، سوريا، ٢٠١٦.

١٤. صالح أحمد العلي، الكوفة وأصلها في صدر الإسلام- دراسة في أصولها العمرانية وسكانها وتنظيماتهم، ط ١، شركة المطبوعات، بيروت، ٢٠٠٩.

١٥. حسن عيسى الحكيم، الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي، ط ١، المعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٩.

١٦. هشام جعيط، نشأة المدينة العربية الإسلامية (الكوفة)، ط ٤، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠١٥.

١٧. عادل إسماعيل خليل ومحمد عبود الشرع، العوامل السياسية المؤثرة في البنية الفكرية لأهل الكوفة، مجلة حولية المنتدى، العدد ١٤، سنة ٢٠١٨.

خريطة (١) توسع الدولة الاسلامية في العهد النبوي

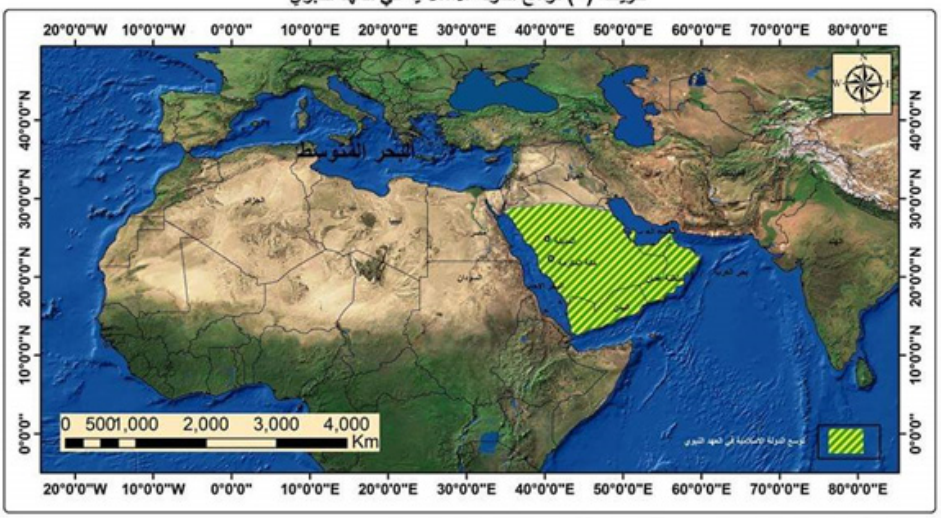

المصدر: بالاعتماد على حسين مؤنس، اطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص٣١ وبالاعتماد على برنامج gismap10.2

خريطة (٢) مراحل توسع الدولة الاسلامية في العصر الراشدي

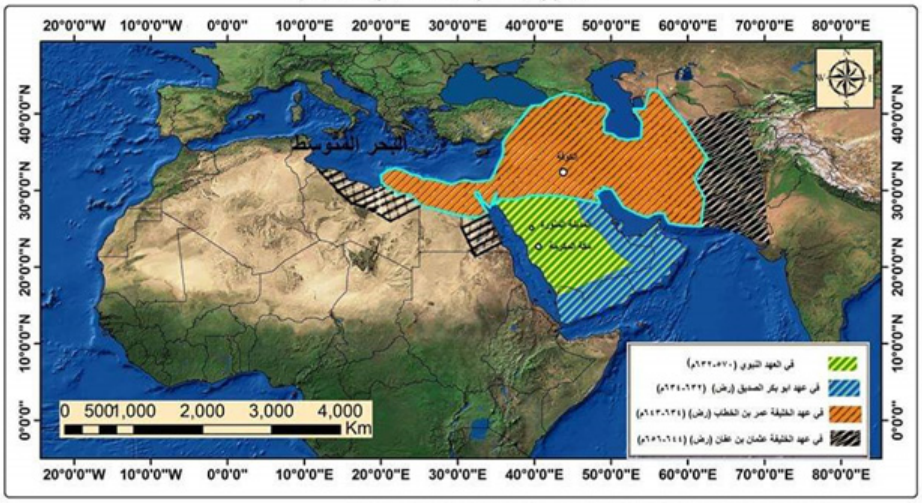

المصدر: بالاعتماد على حسين مؤنس ،اطلس تاريخ الاسلام ،الزهراء للاعلام العربي ، القاهرة، ١٩٨٧، ص٣١ وبالاعتماد علىبرنامج gismap10.2

خريطة (٣) موقع مدينة الكوفة وسط الدولة الاسلامية

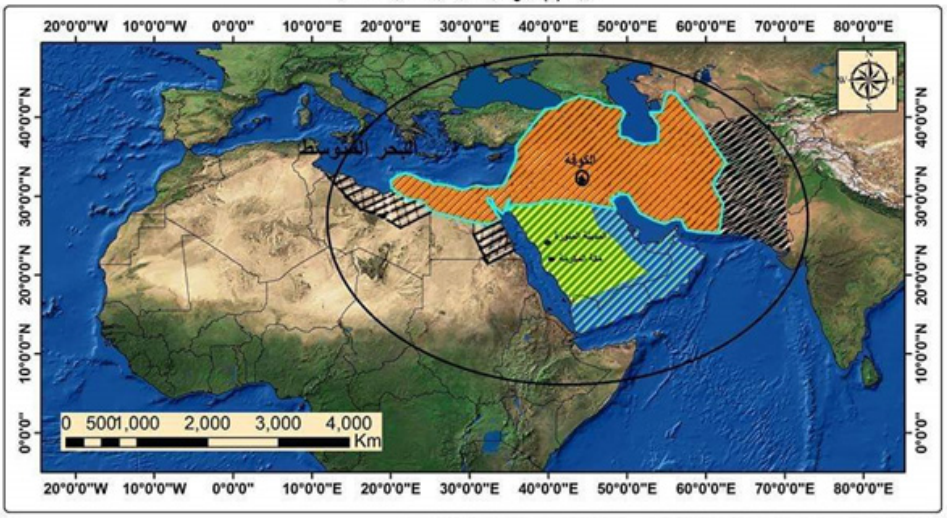

المصدر: بالاعتماد على حسين مؤنس، اطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص٣١ وبالاعتماد على برنامج gismap10.2